البحث السابع

فتق السموات والأرض بعد أن كانتا رتقا

سؤال من أحد علماء دمشق الشام وجوابي عليه:

حينما ذهبت إلى دمشق الشام سنة ١٩٣٠م لبعض الأشغال التجارية صادف أن اجتمعت في الجامع الأموي بحضرة الفاضل الشيخ عبد الفتاح علوان فسألني عم أفهمه في قول تعالى في سورة الأنبياء آية ٣٠: (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) فأجبته في ذلك الوقت جوابا إجماله هذا تفصيله:-

ما قاله المفسرون والعلماء العصريون

في معنى هذه الآية وبيان ضعف أقوالهم

إن المفسرين قالوا في معنى هذه الآية أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا وقطعة واحدة ففتقهما الله عن بعضهما وفصلهما بواسطة الريح وأصعد السموات إلى حيث هي وأقر الأرض وقال بعض العلماء العصريين في معناها أن الشمس والقمر وباقي الأفلاك يعبر عنها بلفظ السموات، وأن الأرض كانت هي والشمس والقمر قطعة واحدة ففتق الله الأرض وقطعها من الشمس وهي في شدة دورانها ثم قطع القمر من الأرض وهناك اختلاف كثير في تفسيرها وكلها ترجع على أن المراد من السموات هي السموات المعلومة ذات الأفلاك والأبراج.

ولكني أقول أنه يرد على تفاسيرهم هذه أن جميع إفراد الناس فضلا عن الذين كفروا الذين ينكرون الإله أو يشركون به لم يكونوا موجودين ولا مخلوقين أصلا حينما فتق الله السموات عن الأرض حتى يقال أن الناس قد رأوها مرتوقة ثم رأوها مفتوقة حسب نص الآية. فعلى هذه التفاسير كيف يؤنبهم الله تعالى ويوبخهم على عدم إيمانهم به، أو على عدم توحيده بسبب كونهم رأوا وأبصروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى والحال أنهم ما كانوا موجودين كليا في ذلك الوقت فضلا عن رؤيتهم لذلك.وهل يناقض القرآن نفسه حيث يقول في آية أخرى (ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) ثم يقول هنا (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما).

وتأويل الرؤية هنا بالعلم كما يقول المفسرون لا يصح أيضا لان ال١ين كفروا ما كانوا يعلمون أيضا ذلك خصوصا عوامهم وجهلاؤهم الذين تشملهم الآية، بل لا يمكن لأحد أن يعلم ذلك ويتحقق لأنه من الأمور الغيبية التي حصلت قبل خلق الإنسان على فرض حصولها بهذه الكيفية.

وما هو الدليل الذي أقامه الله لهم على حصولها بهذه الكيفية حتى يؤنبهم الله بشيء علموه وتحققوه بالدليل مع أنهم كانوا من الكافرين بكل ذلك وبأن الله قد فعله. وبالجملة فإن جميع تفاسير المفسرين في هذه الآية لا يوجد منها تفسير معقول يحقق قيام الآية حجتها، بل تجعلها كأنها عقيمة لا معنى لوا فائدة منها في إقامة الحجة وحسن الإقناع.

ما أفهمه في معنى هذه الآية

وفي المراد من السموات التي كانت رتقا بالأرض

وفي معنى الرتق والفتق، وأدلتي على ما أقوله بوجه ظاهر معقول

إنني افهم في هذه الآية فهما آخر معقولا وغير منتقد، بل قائمة به الحجة، ومصرح به في كثير من آيات القرآن وهو: أن المراد من السموات هنا هي (الغيوم والسحب) وتسميتها (سموات) لأنها مرتفعة وكل مرتفع يصح أن يطلق عليه في اللغة (سماء)

خصوصا وان القرآن قد سماها سماء أيضا حيث قال (يرسل السماء عليكم مدرارا) إذ المدرار المرسل إنما هو الغمام والمطر. وقال أيضا (هو الذي أنزل من السماء ماء) وقال (وما أنزل من السماء من ماء) إذ لا ينزل الماء إلا من الغمام والسحاب.وقال على رضي الله عنه قي خطبة الاستسقاء (اللهم أنزل علينا سماء مخضلة) أي كثيرة الماء. والسماء الخضلة المنزلة إنما هي السحب والمطر والغمام والسحب الكثيرة ولذلك جمعت وأطلق عليها لفظ (سموات). وهذا الغمام وهذه السحب إنما هي ماء متجمد متراكم بل هي الثلج بذاته وهي متكونة من الأبخرة التي تسحبها الشمس والهواء من الأرض ومما فيا من البحار والأنهار والأشجار وكل ذي رطوبة فيها بدليل قوله تعالى في سورة الروم ٤٨ (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا –أي أبخرة مائية مسحوبة من بحار الأرض وأنهارها كما تثير الغبار عن الأرض – فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق – أي قطع الماء وحبه٠ يخرج من خلاله) أي خلال هذه الكسف أي قطع الماء المتجمد الذي هو الغمام. وبدليل قوله تعالى في سورة النور ٤٣: (أمل تر أن الله يزجي سحابا فيؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله) فهذا السحاب والغمام المسمى سماء كان رتقا مع الأرض ومنبثا فيها وقطعة منها لأنه من بخارها ومن بحارها وأنهارها ورطوبة أشجارها بل ومن كل شيء ذي رطوبة فيها ففتقه الله منها وفصله عنها بتبخره منها بواسطة الشمس والهواء ثم جعله كسفا وركاما على الكيفية التي ذكرها الله في هذه الآية وهذا ما أثبته العلم وطابق العقل.

والدليل على أن المراد من السموات في هذه الآية هو الغمام والمطر قوله تعالى في نفس هذه الآية (وجعنا من الماء كل شيء حي) أي أننا ما فصلنا الماء عن الأرض وما رفعناه سماء ثم أنزلناه عليها إلا لنجعل منه كل شيء حي. حينئذ يكون بين هاتين الآيتين المتصلتين ببعضهما مناسبة تامة وإلتآم ظاهر. أما إذا أردنا من السموات الأجرام العلوية ذات الكواكب كما يقول جميع المفسرين القدماء والعصريين فأي مناسبة حينئذ تكون بينها وبين ذكر الماء، وجعل كل شي حي منه؛ فذكر الماء في هذه الآية وجعل كل شيء حي منه أعظم دليل على أنه ليس المارد من السموات في هذه الآية إلا سموات الغيوم وقطع الغمام والسحب التي هي ماء يخرج منه كل شيء حي. ولا شك أن كل إنسان على آخر الدوران سواء كان كافرا بالله أو مؤمنا به يرى ويشاهد أن الماء الذي كان في الأرض ملتزقا ومرتتقا بها وقطعة منها قد أيصبح الآن غيوما وسحبا وسموات فوقه منفصلة عن الأرض ومنفتقة عنها. وعليه يندفع الإشكال الوارد على الآية فيما لو فسر السموات فيها بالأجرام المعلومة التي ما شاهد الإنسان أصلا ولا علم أيضا أنها كانت مرتوقة بالأرض ثم فتقت عنها.

أما على تفسيرنا هذا فالأمر ظاهر إذ أنه في كل سنة أيام الشتاء يرى الإنسان السموات المفتوقة من الأرض فوقه ويرى الأرض المفتوق منها تحته ويرى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي نازلا من هذه السموات ولهذا صح لله تعالى أن يؤنب ويوبخ الكافرين على إنكارهم لوجود الله أو إشراك أحد معه وهم يرون بأبصارهم دائما وأبدا آثار عظمته وكمال قدرته وتمام نعمته من فتق سموات الغيوم والسحب عن الأرض بعد أن كانت رتقا بها ليجعل من هذه العملية ويوجد بها ماء عذبا يخلق منه كل شيء حي. وهل هناك نعمة أعظم من هذه النعمة وأجل منها على الإنسان حيث أن خلقه وخلق جميع لوازم حياته من جميع أنواع الأطعمة والفواكه والثمرات ومن شربه ولباسه ومن سائر الحيوانات المسخرة له كل ذلك كان سبب وبواسطة فتق سماوات الغيوم عن الأرض التي يراها ويبصرها الذين كفروا بوجود الله وبوحدانيته فهل هناك حجة اقوي من هذه الحجة تقوم عليهم بمقتضى تفسيري هذا. أما على تفسير المفسرين فلا يوجد في هذه الآية أدنى حجة تقوم على الكافرين بل بالعكس تكون الحجة لهم على الله لأنهم يمكنهم أن يقولوا ما رأينا بأبصارنا فتق جرم الأرض عن جرم السموات حتى يمكن أن يكون ذلك حجة له علينا وعليه فإن المفسرين سامحهم الله قد جعلوا هذه الآية العظيمة عقيمة المعنى بتفسيرهم هذا. وبالتأمل في تفسيرهم وتفسيري يظهر لك الفرق جليا واضحا.

ثم أنني فهمت في هذه الآية فهما آخر أيضا وهو: أولم ير الذين كفروا أن المياه والأمطار والسحب المسماة سماء بعد نزولها على الأرض كانتا رتقا وطينة مطرية لزجة قبل بروز النبات منها ففتقهما الله بأنواع هذه النباتات والأشجار والأزهار والحبوب والفواكه والثمرات بل وبأنواع الحيوانات وغيرها مما ذكره الله في كثير من الآيات. قال تعالى (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) فالأرض كانت هي وسموات السحب رتقا ففتقهما الله بالنبات من الزرع والشجر والحيوانات والدواب وبكل شيء خرج منها.

وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) فإن هذه الآية تشير إلى معنى الآية التي نحن بصددها من أن الأرض متى نزل عليها الماء الذي يسمى بالسماء –اهتزت وربت به وارتفت معه حتى صارا معا شيئا واحدا وطينة طرية لزجة أنبتت من كل زوج بهيج وفتقت بهذا النبات بسبب رتقها بسماء الغمام وامتزاجها بماء المطر. ولكن التفسير الأول اقرب للآية وأوفق بمعناها وإن كان كل من هذين التفسيرين صحيحا وقريبا ومعقولا بالنسبة لتفسير المفسرين رحمهم الله.

وبعد كتابة ما تقدم وجدت بعض المفسرين قد قال في معنى هذه الآية ما نصه (أن السموات كانت رتقا أي لا تمطر وأن الأرض كانت رتقا أي لا تنبت فلما خلق الله للأرض أهلا فتق السموات بالمطر وفتق الأرض بالنبات) انتهى.

أقول أنه يرد على هذه التفسير اعتراضات كثيرة منها:-

الاعتراض الأول:- الذي أوردناه على التفاسير السابقة من أن الذين كفروا بل وغيرهم من سائر بني الإنسان لم يكونوا موجودين حينما كانت السموات مرتوقة صماء لا تمطر والأرض مرتوقة صماء لا تنبت، وإنما خلقوا ووجدوا بعد أن كانت السموات تمطر والأرض تنبت. وعليه فلا يكون الإنسان قد رآهما مرتوقتين ثم رآهما مفتوقتين حسب تفسيرهم لأن المطر والنبات مخلوقات قبل خلق الإنسان.

الاعتراض الثاني:- أن هذا التفسير بعيد جدا عن معنى الآية حيث أنها صريحة في أن السموات والأرض كانتا رتقا مع بعضهما. أي كانتا قطعة واحدة ففتقهما عن بعضهما، لا أن السموات كانت رتقا في نفسها منفردة عن الأرض وأن الأرض كانت رتقا في نفسها منفردة عن السماء لأن هذا المعنى خلاف ظاهر الآية.

الاعتراض الثالث:- أنه لو كان المراد ما يقولون من أن كلا منهما كان رتقا في نفسه ثم فتق في نفسه كذلك لقال (ألم تر أن السموات والأرض كانتا رتقاوين) ولم يقل (كانتا رتقا) الذي يدل على أنها كانتا معا رتقا ففتقهما عن بعضهما وعلى كل حال فإن تفسيرنا اقرب للحقيقة والواقع ولمعنى الآية من جميع تفاسير المفسرين.

وكما أن السحاب هو المراد من لفظ السماء في هذه الآية فقد يكون هو المراد أيضا من لفظ (الإبل) في قوله تعالى في سورة الغاشية ١٩ (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) فإن لفظ الإبل كما أنه يطلق على الجمال فإنه يطلق في اللغة أيضا على السحاب إطلاقا حقيقيا أو إطلاقا مجازيا لشبهه بالجمال في حمل الأثقال وفي أنها تأتي إرسالا كالإبل وتزجى كما تزجى الإبل وتكون في سيرها مسارب كمسارب الإبل كما في بعض الأحاديث. وحيث أن كلا الأطلاقين لغوي فالأنسب أن تفسير الإبل هنا بالسحاب لوجوه:-

١. لأن السحاب له مناسبة وارتباط بالسموات والأرض والجبال أكثر من مناسبة وارتباط الجمال بها.
٢. لأن نعمة السحاب على العباد أكثر جدا وأعظم منة من نعمة الجمال عليهم.
٣. لان نعمة السحاب عامة وشاملة لجميع العالم بخلاف نعمة الجمال.
٤. لأن كيفية خلق السحاب أعجب من كيفية خلق الجمال ولأن خلقة الجمال ليست بأعجب ولا أعظم من خلقة كثير من الحيوانات كالفيلة ونحوها، ولا أعجب وأعظم منم خلقة الإنسان. وحينئذ فلا وجه لتخصيصها دون سواها من الحيوانات.
٥. لأن المقام مقام التنديد بالكفر بالله مع إسباغه جلائل النعم على العباد فكان ذكر نعمة السحاب أوفق بالتنديد وأقوم في الحجة والإقناع وأكبر منة على الناس لأن فيه حياة العالم أجمع.

وبالجملة فإن تفسير الإبل بالساحب في هذه الآية كما يقول بعض المفرين قد يكون أولى وأحسن من تفسيره بالجمال وإن صمم عليه أكثر المفسرين.